إن الأمر الفاسد إنما يأتى من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ، لذلك نقول : أشكى الناس أزمة ضوء ؟ . لا ؛ لأن الشمس ليست فى متناولنا ، كذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من لأرض ، فإما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه مضهم ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشىء ، الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول لخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ ﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: « لا تغلوا فى دينكم » والغلو هو الخروج عن د الاعتدال فى الحكم ، لأن كل شىء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص رفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب فى هذا

المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو فى الكُرْه ، وغالى النصارى فى الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ؛ وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر فى نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالخوارج كفَّروا علياً ، والمسرفون بالتشيع قالوا : إنه نبى ، وبعضهم زاد فى الإسراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ـ كرم الله وجهه ـ :

« إن فيك من عيسى مثلا . أبغضته اليهود حتى بهتوا أُمَّهُ ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ : « ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محبٌ يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا إنى لست بنبىّ ولا يوحى إلىّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً أن المحب الذى يغالى فى حبه ليس مع علىّ وكذلك الكاره المبغض ؛ فالذى يحب عليا بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا فى عيسى وأمه البهتان العظيم .

---

١ ـ رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح
منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، فعيسى
عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التي جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسسها بشر ، ومادام الحق
قد نسبه إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه
ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم
وروح منه » . فعيسى روح من الحق ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ . هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة
« كن » التي قال عنها سبحانه :

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و« كن » . والشبهة عند النصارى
مردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ؛ وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى
روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

(من الآية ١٣ سورة الجاثية)

فهل هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ . لا . فإذا كانت
الشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب
منطقياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ؛ لأن آدم جاء من غير
ذكورة ولا أنوثة ؛ فلا أب له ولا أم له ؛ لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى
الوسع :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف فى الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن » ، و« النفخ فيه من الروح » ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لآدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خُلق ؛ لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذرا من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن ـ إذن ـ أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعَلِمْنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ، وحدثنا بذلك فى آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل فى هذا تضاد ؟ . أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإثنان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يختمر ، يصير حمأ مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه فى خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التى جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذى يشبه التمثال الذى نراه ، ولكن تنقصه الحركة والحياة ، فيأتى النفخ فى الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودى . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من بعد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة الإنسان الكيماوية لكنها لا تصير إنساناً ؛ لأن الأمر ينقص الإذن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، ويترك لنا سبحانه فى الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نقيض الحياة وهو الموت ، الذى يحدث فيه أولاً خروج الروح ، ومن بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هى مراحل الموت التى تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يَرِم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر فى الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا بالأمر المشهدى ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقة فى إخبارنا بالحياة وكيف بدأت ؛ لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أى شيء إنما يتم على عكس طريقة بنائه . وآخر أمر دخل فى الإنسان هو الروح ، ولذلك فهى أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة هى الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التى يخرج منها الزرع الذى يقتات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هى نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصدق فى أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنسانى . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقارناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر فى تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهى العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته تقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكجسين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هى أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهى العناصر نفسها الموجودة فى تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة .ويسأل أهل الذكر فى تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن فى بالهم إقامة الدليل على صدق الله فى القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فسبحانه ـ إذن ـ أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

(١) رواه البخارى فى الجهاد والقدر ، ورواه مسلم فى الإيمان ورواه أحمد ، والدارمى فى السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسماحة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما فى مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذى خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل مجىء عيسى على الصورة التى جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ . لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ؛ ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة فى رحم حواء ؛ وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هى التى تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التى فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفى الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدته حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله فى القالب ، وفيه شيء من نفخ الله فى الروح ؛ ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فينا به جزء من القالب الذى صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذى أضربه دائماً ليستقر فى أذهان الناشئة ؛ لو جئنا بسنتيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءا ضئيلاً من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير فى البرميل جزء من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءا من السنتيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم - إلى أن تقوم الساعة - فيه جُزَىْء - من آدم عليه السلام .

ونلحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين فى الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون فى نقاش حول هذه المسألة يقولون: إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ويصير المسيح مثلنا . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسي يقول :

(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)[1] .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية المعملية نجد أن هذا القول صدق وحق ؛ لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

---

(١) رواه ابن عدىّ عن ابن مسعود . ورواه مسلمٌ فى العتق .

تأتى فيه إضافيات ؟. كالقول « بالآب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وُجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجتمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الأب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث ؛ لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتتحون القرآن بثلاث صفات هى الله والرحمن والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله و الرحمن والرحيم » .

وما الذى يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟. ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟. لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن لله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالى عشرين قرناً فقط ؟. ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط ـ وهى عمر المسيح ـ لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟. ولماذا يحرم الله ـ إذن ـ بقية الأزمان من بدء الخليقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟.

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟. إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبدا ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: « إله واحد » ، ومرة أخرى يقولون: « إله أحد » . وواحد لا تساوى « أحد » والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه « الكل » وشيئاً اسمه « الجزء » وشيئاً اسمه « الكلى » وشيئاً اسمه « الجزئى » .

« فالكلى » يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد ومحمد وعلىّ ، و« الكل » يُطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسى نجده مكوناً من أشياء ؛ كالخشب والغراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسى ـ إذن ـ « كُلٌّ » لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسمار ؛ لذلك فالكرسى « كُل » لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أى شىء من مكونات الكرسى اسم « كُل » . فلا نقول: « المسمار كرسى » أو « الخشب كرسى » ؛ لأن الكرسى يُطلق على مجموع الخشب والمسامير والغراء والطلاء فى شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة « إنسان » وهى كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة « كُلِّى » .

ويصح أن نطلق على أى كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلىٌّ إنسان . « فالكل » له أجزاء ، وللـ« كلى » جزئيات ، ويكون الكل شيئا واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسى واحد . ولكن لهذا الكرسى أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى: انه « كل » أو « كلى » ؟. لا نقول على اسم الحق « كل » أو « كلى » ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كليا لأنه واحدٌ ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى « كل » أو « جزء » أو « كلى » أو « جزئى » ، فلو كان كُلِّياً لكان ـ كما قلنا ـ له أفراد ولو كان « كُلاًّ » لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يَرُدُّ القرآن على أى قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق: « انتهوا » أي اقضوا على كلمات الباطل ، و« خيراً لكم » أي تمسكوا كلمات الحق ، وفي قوله: « انتهوا خيراً لكم » تخلية وإبعاد لكلمات الباطل ، نأخذ لك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق ونأخذها من قوله ـ سبحانه ـ : خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أي أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : سبحانه أن يكون له ولد » ، وساعة نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه ذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتي في الأمور العجيبة التي يقف فيها العقل ، لى الرغم من وجود كفار في هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله في ا العالم ، وعلى الرغم من وجود من ينعتون البشر بألفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً حداً لم يجترىء على أن يقول لمخلوق كلمة: « سبحانك » ،ولذلك نقول لله عز وجل سبحانك أيضاً في سبحانك » .كذلك لم نجد أحداً من أي ملة أو عقيدة أو دين قد مى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى ا الاسم لمسمى أي مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحين الكافرين مى ابناً له « الله » ؟.

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمّى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فماذا عن الذى جاء بعدها بزمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شىء ؛ وكان عندنا فى القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى فى دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ فى ذلك ، لكن لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أى منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرئوا وتتبعوا المدائح التى قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله فى أمرٍ للإنسان اختيار فيه ، ولا يجرؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض » و« الولد » كما نعلم يكون مما فى السموات أو مما فى الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ١٧٢﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجلى الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجلى على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل :« سبحان الذى أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذى أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطاء علوى من الله ، فكأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تناهى فى العبودية لله نال تناهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء فى النفى ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الخفر أن يقف أمامى ولا العمدة .

إذن فالملائكة فى الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر والأصل فى اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحسّات ، ثم تنتقل من المحسّات إلى المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحسّ ، كما قال الحق :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئا » فالذى يأتى من بعدها إنما يأتى كوسيلة للعلم ، وهى حواس السمع والإبصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال ذلك عندما ندرس فى الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره قهراً وعلانية ، وهو غير السرقة التى يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجرى الخاطف بعيداً ، أما الغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها ـ الغصب ، والسرقة ، والخطف ـ هى أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسىّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمّىَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المحسّات إلى المعنويات . وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . و« يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النَّكْف » عملية حسّية تتمثل فى أن يزيل الإنسان دمعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة فى البيت وجاء له ظرف نفسى جعله يبكى ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النُّكْف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعنى أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاءه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسىّ إلى أى مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير فى طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس فى مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهى عبودية ليست لمن يَسْتَذِل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذى يأخذ ولكنها للذى يعطى . والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثانى الذى يتحدث عن المستنكفين والمستكبرين مقدم على شطر الآية الأول ؟. ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبرو ليستكمل ما جاء بشأنهم فى الآية السابقة ويبين كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن الذين آمنوا وعملو الصالحات ؟.

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلا الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتى أولاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد « والضد يظهر حسنه الضد » .

لقد قال الحق : « **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟. لقد عرفنا من قبل أن العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسـ

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب »[1] .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استنكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتى بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هى البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب ، والرقاق ، ومسلم فى المنافقين ، وابن ماجه فى الزهد والدارمى فى الرقاق ، وأحمد .

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعيسى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبى الخاتم فقد تجلت معجزته فى أنها عين منهجه ، إنّها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حسّى ؛ لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر فى مشيته أو أن يخطىء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيه . إذن النور الموجود فى القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله فى الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قديماً كان الرجل عندما يقع فى هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل فى الاعتصام ، أى يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه سبباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذى يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فإياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمى الإنسان . فعندما تأتيه أمور فى ظاهرها شر ، فمادام مجريها عليك هو الله فهى خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أصل علم الإنسان فى كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمرا أنّه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيىء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفى حياته أشياء كان يظنها خيرا ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التى تقع على الإنسان فحكمتها تمشى على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إننى أدعو الله بكذا ولا يستجيب لى . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هى الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألِىَ فى هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لى فيه ؟ . فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك ولله حكمة فى ذلك .

وحَظِّى من الدنيا سواء لأننى
رضيت بحكم الله فى العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على النجا
وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . وماداموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرها وبيّنها قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم)[1] .

أى يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذى أخذه عن الله وظّفه فى خدمة غيره ،

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ، اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ورواه السيوطى فى الدرّ المنثور والقرطبى فى التفسير ، والفوائد المجموعة للشوكانى .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[1] .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ « يسألونك » . كأن الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يثبتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجد أشياء فى

(١) رواه أحمد والنسائى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون فى حكم . والسؤال يكون فى حكم وفى غير حكم . وهم يطلبون الفتوى فى الكلالة ، ودقة القرآن فى إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذى تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قال :

(مرضت مرضا فأتانى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وهما ماشيان فوجدانى أغمى علىّ ، فتوضأ النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صبّ وَضوءه علىّ فأفقت فإذا النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى ؟ كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث »[1] .

وفى رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ، لأن الكلالة فى الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذى ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله فى الكبر ؛ لذا سمى بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أى التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أى من الآباء ، أو من أدنى أى من الأبناء .

---

١ ـ أخرجه البخارى .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هى أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهى ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هوذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا فى سورة النساء .

